



www.bastinaobjave.com



جامعة الأزهر

كلية اللغة العربية بالقاهرة

قسم أصول اللغة

دراسة "باب القول على أصل اللغة: أ إلهام هي أم اصطلاح؟" لابن جني

إعداد:

الباحث/ الدين عاصم مصطفى

إشراف:

أ. د. أحمد عبدالنواب الفيومي

١٣٩١ هـ ش / ١٤٣٣ هـ ق / ٢٠١٢ م

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الْمُقَدِّمَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله رب العالمين، و الصَّلَاة و السَّلَام على سيِّدنا محمد و آله الطَّاهرين و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين، و بعد...

تقتضي دراسة اللُّغة من الباحث تحديد المستوى المطلوب دراسته؛ لأنَّ دراسة اللُّغة دون فصل بين مستوياتها أمر في غاية الصَّعوبة، فشان عالم اللُّغة كشأن علماء سائر العلوم الطَّبِيعِيَّة الأخرى، فعالم التَّشريح مثلاً لا يمكنه دراسة جسم الكائن الحيِّ دون تحديد أو فصل بين مكوِّناته، بل لا بدَّ من التَّفصيل في أجزاءه إلى: مخِّ و عظام و عضلات، و كلِّ جزء منها إلى أنسجة ثمَّ خَلَايَا.. إلخ.

فكذلك دارس نشأة اللُّغة يحتاج إلى تحديد المستوى المطلوب دراسته، ثمَّ عَلَيْهِ أن يختار موضوعاً معيَّناً يقوم بالبحث فيه، ثمَّ عَلَيْهِ أن يلمَّ كلَّ المصادر و المراجع المطلوبة لإتمام بحثه، وَ هَذَا دفعني إلى كتابة البَحْث الذي سيكون محاولة لاسْتِعْرَاضِ و تلخيص قضية نشأة اللُّغة عند العلماء عامَّةً وَ عند ابن جَبِّي خاصَّةً، الَّتِي هي من ضمن المنهج المقرَّر لطلاب الفرقة الثَّانِيَّة التَّمهيدِيَّة للدراسات العليا في قسم أُصُول اللُّغة بجامعة الأزهر.

أما بخصوص الدِّراسات الَّتِي اعتمدت عَلَيْهَا في إنجاز هَذَا البَحْث، فَهِيَ الكتاب لِأُسْتَاذ الدِّكتور أمين محمد فاخر بالعنوان: "دراسات لغويَّة في الصَّاحبي - الخصائص - المزهر"، وَ الكتب الَّتِي ذكرت في هَذَا الكتاب المثمر، كما قدُ ذكرتها في المصادر وَ المراجع.

و قد جعلت هذا البحث على النحو الآتي:

- المقدمة،
 - الفصل الأول الذي أتيت فيه بترجمة ابن جنيّ و مناقشة عن اسمه،
 - و الفصل الثاني الذي هو عبارة عن تعريف مختصر سريع لـ"الخصائص" لابن جنيّ،
 - و الفصل الثالث الذي أتيت فيه بالنصّ الوارد في "الخصائص" في "باب القول على أصل اللّغة: أ إلهام هي أم اصطلاح؟"، و تناولت فيه قضية نشأة اللّغة، عند ابن جنيّ و عند غيره من العلماء، التي عالجتها بالمنهج التاريخي المقارن،
 - الخاتمة: و هي عبارة عن أهمّ النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث.
- و الله المسؤل أن يحقّق ما أمّلتُهُ، و أن ينفع بما كتبتُهُ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، و ما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت و إليه أنيب.

الْكَشَافُ لِلرُّمُوزِ الْمُسْتَحْدَمَةِ فِي الْبَحْثِ

أ. = أستاذ،	د. = دكتور،
أ.د. = أستاذ دكتور،	د.ت = دون تاريخ،
إخ = إلى آخره،	ب = رقم،
ت = تُوفي،	س = سنة،
تح = تحقيق،	ش = شرح،
تر = ترجمة،	ص = صفحة،
تص = تصحيح،	ض = ضبط،
تع = تعليق،	م = ميلادية،
تق = تقديم،	مر = مراجعة،
ج = جزء،	ه = هجرية.
ط = طبعة،	

الفصل الأول:

تَرْجَمَةُ ابْنِ جَبِّي

تَرْجَمَةُ ابْنِ جَنِّيٍّ

نَسَبُهُ وَ مَوْلِدُهُ وَ وَفَاتُهُ وَ أَسَاتِذَتُهُ

هُوَ أَبُو الْفَتْحِ عُثْمَانُ بْنُ جَنِّيٍّ الْأَزْدِيُّ الْمَوْصِلِيُّ:

وَ لَا يَعْرِفُ الرَّوَاةُ لَهُ نَسَبًا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ لَيْسَ مِنْ أَصْلِ عَرَبِيٍّ بَلْ كَانَ أَبُوهُ "جَنِّيًّا" رُومِيًّا يُونَانِيًّا، مَمْلُوكًا لِسُلَيْمَانَ بْنِ فَهْدِ الْأَزْدِيِّ، وَ مِنْ ثَمَّ يَنْتَسِبُ ابْنُ جَنِّيٍّ إِلَى ذَلِكَ بِالْوَلَاءِ فَيُقَالُ عَنْهُ ابْنُ جَنِّيٍّ الْأَزْدِيُّ. وَ لَمْ يَذْكُرِ الرَّوَاةُ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا يَذْكُرُ، كَذَلِكَ لَمْ يَشِيرِ ابْنُ جَنِّيٍّ فِي مَصْنُفَاتِهِ إِلَى سُلَيْمَانَ مَوْلَى أَبِيهِ، وَ لَعَلَّهُ - كَمَا يَرَى بَعْضُ الْبَاحِثِينَ - كَانَ يَرِيدُ أَنْ يَمْحُو هَذَا النِّقْصَ، يَشْهَدُ لِذَلِكَ شَعْرُهُ الَّذِي يَذْكُرُ فِيهِ أَنَّ نَسَبَهُ الْعِلْمُ وَ أَنَّ انْتِسَابَهُ إِلَى الْقِيَاصِرَةِ، لَا فَخْرًا بِذَلِكَ وَ إِنَّمَا لِيَعْوِضَ عَنِ النَّسَبِ الْعَرَبِيِّ، يَقُولُ:

- فَإِنْ أَصْبَحَ بِلَا نَسَبٍ

فَعَلِمِي فِي الْوَرَى نَسَبِي

- عَلَى أَنِّي أُووَلُّ إِلَى

قُرُومِ سَادَةِ نَجَبِ

- قِيَاصِرَةَ إِذَا نَطَقُوا

أَرَمِ الدَّهْرِ ذُو الْخَطْبِ

- أَوْلَاكَ دَعَا النَّبِيَّ لَهُمْ

كَفَى شَرْفًا دَعَاءَ نَبِيٍّ

هَذَا الْوَادِي تَسْكُنُهُ شِعْرَاءُ الْجَنِّ مِنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ. وَ يُقَالُ أَنَّ مِنْ أَمْسَلَى لَيْلَةَ فِي هَذَا الْوَادِي جَاءَهُ شَاعِرٌ أَوْ شَاعِرَةٌ مِنَ الْجَنِّ وَ لَقَنُوهُ الشَّعْرَ، وَ أَنَّ كُلَّ شَاعِرٍ مِنْ شِعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ لَهُ قَرِينٌ مِنْ هَذَا الْوَادِي يَلْقَاهُ الشَّعْرَ. فِي اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، أَسْلَ كَلِمَةُ عِبْقَرِيَّ (Genius) لَهَا أَيْضًا أَصُولٌ مُشَابِهَةٌ لِتِلْكَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَهِيَ تَأْتِي مِنَ اللُّغَةِ الرُّومَانِيَّةِ الْقَدِيمَةِ وَ الَّتِي نَدَلَّ عَلَى رُوحٍ غَيْرِ مَرْتِيَّةٍ تَقُودُ النَّاسَ إِلَى الْعِبْقَرِيَّةِ وَ الْإِبْدَاعِ. جَمْعُ كَلِمَةِ (Genius) فِي اللُّغَةِ الرُّومَانِيَّةِ هُوَ (Genii). فِي أَوْقَاتٍ لَاحِقَةٍ ارْتَبَطَتْ كَلِمَةُ عِبْقَرِيَّ بِالْإِبْدَاعِ. انظُرْ:

Oxford Latin Dictionary (Oxford: Clarendon Press, 1982, 1985 reprinting), entries on *genius*, p. 759, and *gigno*, p. 764..

فإذن ماذا نستفيد من أصل الكلمة في اللغتين؟ و الجواب هو: التعريف يخبرنا أن عبقرية الإنسان و إبداعه يأتيان من مصادر خارجية، حيث يحتاج روحًا تتفحصه كي يأتي بالجديد. لكن العلم الحديث يخبرنا أن ذلك غير صحيح.

و أما معنى الكلمة في اللغة اليونانية فهو على هذه الأضرب: فالأول: (μεγαλοφυία)، و تكتب بالخط اللاتيني: (megalofyía)، و بالخط العربي: "ميغالوفيا"؛ و الثاني: (ευφυής)، و باللاتيني: (effyís)، و بالعربي: "أفيس"؛ و الثالث: (ταλέντο)، و باللاتيني: (talénto)، و بالعربي: "تالينتو"؛ و الرابع: (ιδιοφυία)، و باللاتيني: (idiofyía)، و بالعربي: "إديوفايا"؛ و الخامس: (δαιμόνιο πνεύμα)، و باللاتيني: (daimónio pneúma)، و بالعربي: "دائمونيو پنيوما".

انظر: المصادر التالية:

1. Browning, Robert (1983) *Medieval and Modern Greek*, Cambridge University Press, 2nd edition.
2. Woodhouse, S. C. (1910) *English-Greek Dictionary (A Vocabulary of the Attic Language)*. London: Oxford, George Routledge & Sons, Limited Broadway House, Ludgate Hill, E. C., page 357..

وَ هَذَا كُلُّهُ يَدَلُّ أَنَّ هَذَا الْاسْمَ لَيْسَ مِنْ أَسْلِ يُونَانِيٍّ بَلْ هُوَ مِنْ أَسْلِ رُومَانِيٍّ أَيْ لَاتِينِيٍّ، وَ أَمَا قَوْلُ السَّمْعَانِيِّ فِي "الْأَنْسَابِ" فَسَأَذْكَرُهُ فِي الْهَامِشِ الْقَادِمِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَ قَالَ السَّمْعَانِيُّ فِي "الْأَنْسَابِ" فِي النَّسَبِ لـ"الْحِجِّيِّ": "... وَ بَغَيْرِ الْأَلْفِ وَ اللَّامِ أَبُو الْفَتْحِ عَثْمَانُ بْنُ جَنِّيِّ النَّحْوِيِّ الْمَدَقَّقِ الْمَصْنُفِ...". – انظر: الأنساب، الإمام أبو سعد عبدالكريم بن محمد ابن منصور

بالرُّومِيَّة"، وَ هَذَا يطابق ما ذكره بعضهم^٤ من أنّ هَذِهِ الكَلِمَة تَفِيد مَعْنَى: كَرِيم أَوْ نَبِيل أَوْ جَيِّد التَّفْكِير أَوْ عَبْقَرِي أَوْ مَخْلَص.

وَ قَدْ عَاش ابن جَنِّي فِي القرن الرَّابِع الهِجْرِيّ وَ هُوَ القرن الَّذِي عَاش فِيهِ ابن فَارِس وَ يَذْكَر كَثِير من الرِّوَاة أنّ ابن جَنِّي وُلِد قَبْل الثَّلَاثِينَ وَ الثَّلَاثِينَ مِنَ الهِجْرَة وَ لَا يَعْنُونَ مولده عَلَيّ وَجِه التَّحْدِيد وَ إِن كَانَ يُمْكِن أَن يَرَجَّح قول بعض البَاحِثِينَ أَنَّهُ وُلِد سنة ٢٢٠ هـ أَوْ ٢٢٣ هـ، وَ تَوَفِّي سنة ٣٩٢ هـ عَلَيّ أَرَجَّح الأقْوَال.

وَ قَدْ وُلِد ابن جَنِّي وَ نَشَأَ فِي بَلَدَة المَوْصَل وَ بَدَأ حَيَاتِهِ العِلْمِيَّة بِهَا تَلْمِيذًا وَ مَعْلَمًا فَأَخَذ النُّحُو فِيهَا عن شَيْخه أَحْمَد بن مُحَمَّد المَوْصَلِيّ الشَّافِعِيّ المَعْرُوف بِالْأَخْفَش^٥ وَ فِيهَا أَيْضًا تَقَابُل مع أَسْتَاذِهِ أَبِي عَلِيّ الْفَارِسِيّ^٦، وَ يَذْكَر الرِّوَاة فِي قِصَّة لِقَائِهِ بِأَسْتَاذِهِ هَذَا وَ صَحْبَتِهِ لَهُ أَن أَبَا عَلِيّ اجْتَازَ بِالمَوْصَل فَمَرَّ بِالْجَامِع وَ أَبُو الفَتْح فِي حَلْقَة يَقْرَأ النُّحُو وَ هُوَ شَابٌّ فَسَأَلَهُ أَبُو عَلِيّ عن مَسْأَلَة فِي التَّصْرِيف^٧ فَقَصَرَ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ أَبُو عَلِيّ: "لَقَدْ صَرْتَ ذَبِيبًا قَبْل أَن تَكُونَ حَصْرَمًا"، فَسَأَلَ عَنْهُ فَقِيلَ لَهُ: "هَذَا أَبُو عَلِيّ الْفَارِسِيّ"، فَلَزِمَهُ مِنْ يَوْمئِذٍ وَ اغْتَنَى بِالتَّصْرِيفِ، فَمَا أَحَدٌ أَعْلَمَ مِنْهُ بِهِ، وَ لَا أَقْوَمَ بِأَصُولِهِ وَ فِرْوَعِهِ، وَ لَا أَحْسَنَ أَحَدٌ إِحْسَانَهُ فِي تَصْنِيفِهِ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُو عَلِيّ تَصَدَّرَ أَبُو الفَتْح فِي مَجْلِسِهِ.

التَّمِيمِيّ السَّمْعَانِيّ (ت ٥٦٢ هـ)، تَح وَ تَع: عَبْدُ اللَّهِ عَمْرُ البَارُودِيّ، ج ٢، ص ١٠٠، ط ١، دار الجَنَان، بِيروَت - لَبْنَان ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.

٤ انظُر: الْخَصَائِصُ، أَبُو الفَتْحِ عُثْمَانُ بن جَنِّيّ، تَح: مُحَمَّد عَلِيّ التَّجَار، المَقْدَمَة ص ٢، دار الكُتُبِ المِصْرِيَّة، القَاهِرَة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م. وَ انظُر: دَرَاَسَات لُغَوِيَّة فِي الصَّاحِبِي - الْخَصَائِص - المِزْهَر، د. أَمِين مُحَمَّد فَاحِر، ص ٩٨.

٥ لَمْ تَذْكَر المَرَاجِع تَارِيخ وَفَاتِهِ وَ لَيْسَ هُوَ الْأَخْفَش المَعْرُوف.

٦ هُوَ الحِسن بن أَحْمَد بن عَبْدِ الغَفَّارِ الْفَارِسِيّ أَبُو عَلِيّ، وُلِدَ فِي بَلَدَة (مِنْ أَعْمَالِ فَارِس) ٢٨٨ هـ وَ تَوَفِّي ٣٧٧ هـ.

٧ هِيَ مَسْأَلَة قَلْب الوَاوِ أَلْفًا فِي نَحْوِ "قَالَ" وَ "قَامَ"، وَ يُقَالُ إِنَّ خَطَأَهُ أَمَامَ أَبِي عَلِيّ فِي هَذِهِ المَسْأَلَة كَانَ سَبَبًا فِي عَنَابَتِهِ بِهَا وَ إِكْتَارِهِ مِنَ القَوْلِ فِيهَا، فَقَدْ عَرَضَ لَهَا فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ فِي كِتَابِهِ "الْخَصَائِص".

وَ يُعْتَبَرُ الْفَارِسِيِّ - أَكْبَرُ أَسَاتِذَةِ ابْنِ جَنِّي - فَقَدْ لَازَمَهُ مَدَّةَ تَقَرُّبٍ مِنْ أَرْبَعِينَ عَامًا وَ تَوَثَّقَتْ الصَّلَاتُ بَيْنَهُمْ، وَ كَانَ ابْنُ جَنِّي مِثَالَ التَّلْمِيزِ الْوَفِيِّ لِأَسَاتِذِهِ الْأَمِينِ فِي النَّقْلِ عَنْهُ، يَشِيدُ دَائِمًا بِفَضْلِهِ وَ عِلْمِهِ، وَ يَفْخَرُ بِالِانْتِسَابِ إِلَيْهِ وَ أَخَذَهُ عَنْهُ، وَ يَعْتَرِّ بِإِرْجَاعِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَسَائِلِ إِلَيْهِ وَ رَوَايَتِهَا عَنْهُ فِي مَعْظَمِ كُنُوبِهِ.

وَ قَدْ أَخَذَ ابْنُ جَنِّي عَنْ كَثِيرٍ مِنْ رِوَاةِ اللَّغَةِ وَ الْأَدَبِ، فَيُرْوَى عَنْ أَبِي الْفَرَجِ الْأَصْبَهَانِيِّ (ت ٣٥١ هـ) صَاحِبِ كِتَابِ "الْأَغَانِي"، كَذَلِكَ يُرْوَى عَنْ أَبِي بَكْرِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ الْمَعْرُوفِ بِأَبْنِ مَقْسَمٍ (٣٥٣ هـ) وَ هُوَ مِنَ الْقُرَّاءِ وَ كَانَ يُرْوَى عَنْ ثَعْلَبٍ^٨، وَ يُرْوَى ابْنُ جَنِّي أَيْضًا عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ هَارُونَ (ت ٣٥٧ هـ) عَنْ أَبِي حَاتِمِ السَّجِسْتَانِيِّ^٩، وَ كَذَلِكَ يُرْوَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَلْمَةَ عَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ الْمَبْرَدِيِّ^{١٠}، وَ يَأْخُذُ كَذَلِكَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْعَسَافِ الْعَقِيلِيِّ التَّمِيمِيِّ وَ يَذْكُرُهُ فِي بَعْضِ مَدْجَالِسِهِ الْعِلْمِيَّةِ بِاسْمِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الشَّجَرِيِّ.

تَلَامِذُهُ وَ آثَارُهُ

وَ لِابْنِ جَنِّي تَلَامِذَةٌ كَثِيرُونَ تَأَثَّرُوا بِهِ فِي اللَّغَةِ وَ النَّحْوِ وَ الصَّرْفِ وَ مِنْ هَؤُلَاءِ - كَمَا تَذَكُرُ كِتَابَ التَّرَاجِمِ - أَبُو أَحْمَدَ عَبْدِ السَّلَامِ الْبَصْرِيُّ (٣٢٩-٤٠٥ هـ)، وَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ السَّمْسَمِيِّ (ت ٤١٥ هـ)، وَ أَبُو الْفَتْوحِ ثَابِتُ بْنُ مُحَمَّدِ الْجَرَجَانِيِّ الْأَنْدَلِسِيِّ (٣٥٠-٤٣٠ هـ)، وَ عَلِيُّ بْنُ زَيْدِ الْفَلَنْشَانِيِّ النَّحْوِيِّ، وَ ابْنُ سَنَانَ الْخَفَاجِيِّ (ت ٤٦٦ هـ) صَاحِبُ "سِرِّ الْفَصَاحَةِ"، وَ

^٨ هُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ زَيْدِ بْنِ سَيَّارِ الشَّيْبَانِيِّ، الْمَعْرُوفُ بِ"ثَعْلَبٍ"، إِمَامُ الْكُوفِيِّينَ فِي النَّحْوِ وَ اللَّغَةِ، كَانَ ثِقَةً حَجَّةً فِي اللَّغَةِ وَ كَانَ مَحَدِّثًا مَشْهُورًا بِالْحِفْظِ رِوَايَةَ لِلشَّعْرِ، وَلِدَ ٢٠٠ هـ بِبَغْدَادٍ وَ مَاتَ ٢٩١ هـ.

^٩ هُوَ أَبُو حَاتِمِ سَهْلِ بْنِ مُحَمَّدِ عَثْمَانَ الْجَشْمِيِّ السَّجِسْتَانِيِّ مِنْ كِبَارِ عُلَمَاءِ الْبَصْرَةِ قَرَأَ عَلَيْهِ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمَبْرَدِيُّ وَ تَوَفِّي ٢٤٨ هـ.

^{١٠} هُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدِ بْنِ عَبْدِ الْأَكْبَرِ التَّمَالِيِّ الْأَزْدِيِّ، الْمَعْرُوفُ بِ"الْمَبْرَدِيِّ"، أَحَدُ أُمَّةِ اللَّغَةِ وَ الْأَدَبِ فِي بَغْدَادٍ، وَلِدَ بِالْبَصْرَةِ ٢١٠ هـ وَ تَوَفِّي بِبَغْدَادٍ ٢٨٤ هـ.

غير هؤلاء كثيرون تأثروا بأبن جنيّ في مؤلفاتهم و أخذوا عنه كثيرًا من أبحاثه، من أمثال ابن منظور في معجمه "لسان العرب"، و ابن سيده في معجمه "المحکم" و "المخصّص"، و ابن الأثير في كتابه "المثل السائر، و السيوطي في كثير من كتبه، و خاصةً "المزهر"، و "الإقتراح"، و "الأشباه و التّظائر".^{١١}

و قد خلف للدّارسين و الباحثين ابن جنيّ كُتُبًا تزيد عن السّتين كتابًا أغلبها في النّحو و اللّغة و التّصريف، و أشهرها في ذلك كتاب "الخصائص" الّذي سوف أتعرّض له فيما بعد بدراسة الباب منه و هو "باب القول على أصل اللّغة: أ إلهاّم هي أم اصطلاح"، و كتاب "سِرُّ صناعة الإعراب"، و كتب "المصنّف" و هو شرح "تصريف" المازني، و كتاب "المحتسب في شرح شواذّ القراءات".

^{١١} انظر: دراسات لغويّة في الصّاحبي - الخصائص - المزهر، د. أمين محمد فاخر، من ص ١٠٤ إلى ص ١٠٧.

الفصل الثّاني:

عَنْ "الْخَصَائِصِ"

عَنْ "الْخَصَائِصِ"

ألف ابن جنّي هذا الكتاب بعد وفاة استاذة أبي عليّ الفارسيّ سنة ٢٧٧ هـ، وقدمه إلى بهاء الدولة الذي تولى ملك بغداد في ظلّ الخلافة العبّاسيّة (٣٧٩-٤٠٣ هـ) و يفهم هذا من مقدّمته التي يقول فيها:

"هذا - أطل الله بقاء مولانا الملك السيّد المنصور المؤيّد بهاء الدولة و ضياء الملة، و غياث الأمة، و أدام ملكه و نصره و سلطانه و مجده، و تأييده و سموه، و كبت شائنه و عدوه - كتاب لم أزل على فارط الحال و تقادم الوقت ملاحظًا له و عاكف الفكر عليه...".^{١٢}

و قد اشتمل هذا الكتاب على مباحث في اللّغة و النّحو و التّصريف، و لكنّه يعتبر من أهمّ الكُتب التي ألفت قديمًا في فقه اللّغة، فقد اشتمل على مباحث مهمّة في الدّراسات اللّغويّة، مثل القول في نشأة اللّغة أ إلهام هي أم اصطلاح؟ و القول في هذه اللّغة أ في وقت واحد وضعت أم تلاحق تابع منها بفارط؟ و القول في تداخل اللّغات بين القبائل العربيّة المختلفة، و الاطراد و الشّدوذ في كلام العرب، و مناسبة الألفاظ للمعاني، و تقارب الألفاظ لتقارب المعاني، و الاشتقاق بأنواعه المختلفة، و اختلاف اللّهجات، و غير ذلك من المباحث الخطيرة التي كان لها أثر كبير في الدّراسات اللّغويّة بوجه عامّ و في فقه اللّغة بوجه خاصّ، ممّا جعل كثيرًا من الباحثين يعدّون هذا الكتاب مع كتاب "الصّاحبي" لابن فارس من أعظم الكُتب التي ألفت في القرن الرّابع الهجريّ مشتملة على مباحث هامّة في فقه اللّغة.

و سوف أذكر هنا نصًّا من هذا الكتاب في موضوع مهمّ في فقه اللّغة، و هو:

^{١٢} انظر: الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنّي، تح: محمد عليّ النّجار، ج ١، ص ١٠٠. و انظر: دراسات لغويّة في الصّاحبي - الخصائص - المزهر، د. أمين محمد فاخر، ص ١٠٠.

"بَابِ الْقَوْلِ عَلَى أَصْلِ اللُّغَةِ: أَلِإِهَامٌ هِيَ أَمْ اصْطِلَاحٌ؟"

ثمَّ أبين بعد ذلك تعليقي على هذا الكتاب و هذا الموضوع في هوامش البحث و خاتمته،
إن شاء الله - تعالى - .

الفصل الثالث:

دِرَاسَةٌ "بَابِ الْقَوْلِ عَلَى أَصْلِ اللُّغَةِ: أَلِإِهَامٌ
هِيَ أَمْ اصْطِلَاحٌ؟" لِابْنِ جَنِّيٍّ

دِرَاسَةٌ "بَابِ الْقَوْلِ عَلَى أَصْلِ اللُّغَةِ: أَلِإِهَامٌ هِيَ أَمِ اصْطِلَاحٌ؟" لِابْنِ جَنِّيِّ

وَ قَالَ ابْنُ جَنِّيِّ فِي هَذَا الْبَابِ مَا يَلِي:

"هَذَا الْمَوْضُوعُ مَحْجُوجٌ إِلَى فَضْلِ تَأَمُّلٍ، غَيْرَ أَنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّظَرِ عَلَى أَنَّ أَصْلَ اللُّغَةِ إِتْمَا هُوَ تَوَاضِعٌ وَ اصْطِلَاحٌ، لَا وَحِيٌّ وَ تَوْقِيفٌ، إِلَّا أَنَّ أَبَا عَلِيٍّ^{١٣} - رَحِمَهُ اللهُ - قَالَ لِي يَوْمًا: "هِيَ مِنْ عِنْدِ اللهِ"، وَ احْتَجَّ بِقَوْلِهِ - سَبْحَانَهُ -: (وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)، وَ هَذَا لَا يَتَنَاوَلُ مَوْضِعَ الْخِلَافِ، وَ ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُهُ: أَقْدَرُ آدَمَ عَلَى أَنْ وَاضِعٌ عَلَيْهَا، وَ هَذَا الْمَعْنَى مِنْ عِنْدِ اللهِ - سَبْحَانَهُ - لَا مُحَالَةَ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ مُحْتَمَلًا غَيْرَ مُسْتَنَكِرٍ سَقَطَ الْاسْتِدْلَالُ بِهِ، وَ قَدْ كَانَ أَبُو عَلِيٍّ - رَحِمَهُ اللهُ - أَيْضًا قَالَ بِهِ^{١٤} فِي بَعْضِ كَلَامِهِ، وَ هَذَا أَيْضًا رَأْيُ أَبِي الْحَسَنِ^{١٥}، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَمْنَعْ قَوْلَ مَنْ قَالَ: "إِنَّهَا تَوَاضِعٌ مِنْهُ!"^{١٦}.

عَلَى أَنَّهُ قَدْ فَسَّرَ هَذَا بِأَنَّ قِيلَ: "إِنَّ اللهَ - سَبْحَانَهُ - عَلَّمَ آدَمَ أَسْمَاءَ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ بِجَمِيعِ اللُّغَاتِ: الْعَرَبِيَّةِ وَ الْفَارْسِيَّةِ، وَ السَّرِّيَانِيَّةِ وَ الْعِبْرَانِيَّةِ، وَ الرُّومِيَّةِ، وَ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ اللُّغَاتِ، فَكَانَ آدَمُ وَ وَلَدُهُ يَتَكَلَّمُونَ بِهَا، ثُمَّ إِنْ وَلَدُهُ تَفَرَّقُوا فِي الدُّنْيَا، وَ عَلَّقَ كُلٌّ مِنْهُمْ بِلُغَةٍ مِنْ تِلْكَ اللُّغَاتِ، فَغَلِبَتْ عَلَيْهِ، وَ اضْمَحَلَّ عَنْهُ مَا سِوَاهَا، لِبَعْدِ عَهْدِهِمْ بِهَا.

^{١٣} هُوَ أَسْتَاذُهُ الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الْغَفَّارِ الْقَارِسِيِّ أَبُو عَلِيٍّ.

^{١٤} أَيِ الْقَوْلِ بِأَنَّ اللُّغَةَ نَشَأَتْ عَنْ طَرِيقِ التَّوَاضِعِ وَ الْاصْطِلَاحِ.

^{١٥} يَقْصِدُ أَبَا الْحَسَنِ الْأَخْفَشَ.

^{١٦} أَيِ مَنْ آدَمَ، وَ سِيَّائِي شَرَحَ مَعْنَى التَّوَاضِعِ وَ الْاصْطِلَاحِ فِي كَلَامِ ابْنِ جَنِّيِّ.

وَ إِذَا كَانَ الْخَبْرُ الصَّحِيحَ قَدْ وَرَدَ بِهَذَا وَجِبَ تَلْفِيهِ بِاعْتِقَادِهِ، وَ الْإِنْطِوَاءَ عَلَى الْقَوْلِ بِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: "فَاللُّغَةُ فِيهَا أَسْمَاءٌ، وَ أَفْعَالٌ، وَ حُرُوفٌ، وَ لَيْسَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ الْأَسْمَاءِ دُونَ غَيْرِهَا: مِمَّا لَيْسَ بِأَسْمَاءٍ، فَكَيْفَ خَصَّ الْأَسْمَاءَ وَحْدَهَا؟"^{١٧}.

قِيلَ: "اعْتَمَدَ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ كَانَتْ الْأَسْمَاءُ أَقْوَى الْقَبْلِ الثَّلَاثَةِ"^{١٧}، وَ لَا بَدَّ لِكُلِّ كَلَامٍ مَفِيدٍ مِنَ الْإِسْمِ، وَ قَدْ تَسْتَعْنَى الْجُمْلَةُ الْمُسْتَقْلَّةُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْحَرْفِ وَ الْفِعْلِ، فَلَمَّا كَانَتْ الْأَسْمَاءُ مِنَ الْقُوَّةِ وَ الْأَوْلِيَّةِ فِي النَّفْسِ وَ الرَّتْبَةِ عَلَى مَا لَا خِفَاءَ بِهِ جَارٍ أَنْ يَكْتَفِيَ بِهَا مِمَّا هُوَ تَالٍ، وَ مَحْمُولٌ فِي الْحَاجَةِ إِلَيْهِ عَلَيْهَا. وَ هَذَا كَقَوْلِ الْمَخْزُومِيِّ^{١٨}:

- اللهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتَ قَتَالَهُمْ

حَتَّى عَلَوْا فَرَسِي بِأَشْقَرٍ مَزْبَدٍ

أَيُّ فَإِذَا كَانَ اللهُ يَعْلَمُهُ فَلَا أَبَالِي بِغَيْرِهِ - سُبْحَانَهُ - أَ ذَكَرْتَهُ وَ اسْتَشْهَدْتَهُ أَمْ لَمْ أَذْكَرْهُ وَ لَمْ اسْتَشْهَدْهُ. وَ لَا يَرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ هَذَا أَمْرٌ خَفِيٌّ، فَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، بَلْ إِنَّمَا يَحِيلُ فِيهِ عَلَى أَمْرٍ وَاضِحٍ، وَ حَالٍ مَشْهُورَةٍ حِينَئِذٍ مُتَعَالِمَةٍ. وَ كَذَلِكَ قَوْلُ الْآخَرِ:

- اللهُ يَعْلَمُ أَنَا فِي تَلْفَتِنَا

يَوْمَ الْفِرَاقِ إِلَى أَحِبَابِنَا صُورٍ^{١٩}

^{١٧} أَيِ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي هِيَ: الْأَسْمَاءُ وَ الْأَفْعَالُ وَ الْحُرُوفُ، وَ قَدْ جَعَلَهَا كَأَنَّهَا جَمَاعَاتٌ وَ طَوَائِفٌ.

^{١٨} هُوَ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ، وَ قَدْ عَيَّرَ بِفِرَارِهِ مِنَ الْقِتَالِ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ هَذَا فِي قَصِيدَةٍ يَعْتَدِرُ بِهَا عَنْ فِرَارِهِ، وَ يَعْنِي بِالْأَشْقَرِ الْمَزْبَدِ: الدَّمُ، وَ هُوَ مَزْبَدٌ أَيُّ عِلَاهِ الرَّبْدِ.

^{١٩} بَعْدَهُ الْبَيْتُ:

- وَ أَنْتِي حَيْثَمَا يَدْنِي الْهَوَى بَصْرِي

مِنْ حَيْثُ مَا سَلَكُوا أَدْنُو فَانْظُرْ

وَ لَيْسَ بِمَدْعٍ أَنْ هَذَا بَابٌ مُسْتَوْرٌ، وَ لَا حَدِيثٌ غَيْرٌ مُشْهُورٌ، حَتَّى إِنَّهُ لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَ إِنَّمَا الْعَادَةُ فِي أَمْثَالِهِ عَمُومٌ مَعْرِفَةَ النَّاسِ بِهِ لَفْشُوهُ فِيهِمْ، وَ كَثْرَةُ جَرِيَانِهِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ.

فَإِنْ قِيلَ: "فَقَدْ جَاءَ عَنْهُمْ فِي كِتْمَانِ الْحَبِّ وَ طَيْبِهِ وَ سِتْرِهِ وَ الْبَجْحِ^{٢٠} بِذَلِكَ وَ الْإِدْعَاءِ لَهُ مَا مَا لَا خِفَاءَ بِهِ"؛ فَقَدْ تَرَى إِلَى اعْتِدَالِ الْحَالِيْنَ فِيْمَا ذَكَرْتَ.

قِيلَ: "هَذَا وَ إِنْ جَاءَ عَنْهُمْ، فَإِنَّ إِظْهَارَهُ أَنْسَبَ عِنْدَهُمْ^{٢١}، وَ أَعَذِبَ عَلَى مُسْتَمْعِمِهِمْ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ فِيهِ إِبْدَانًا مِنْ صَاحِبِهِ بِعَجْزِهِ عَنْهُ وَ عَنْ سِتْرِ مِثْلِهِ، وَ لَوْ أَمَكْنَهُ إِخْفَاؤُهُ وَ التَّحَامِلُ بِهِ^{٢٢} لَكَانَ مُطَبِّقًا لَهُ، مُقْتَدِرًا عَلَيْهِ، وَ لَيْسَ فِي هَذَا مِنَ التَّغْزَلِ مَا فِي الْإِعْتِرَافِ بِالْبَعْلِ بِهِ^{٢٣}، وَ حَوْرُ الطَّبِيعَةِ عَنِ الْإِسْتِقْلَالِ بِمِثْلِهِ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ عُمَرَ [بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ]:

- فَقُلْتُ لَهَا: "مَا بِي لَهْمٍ مِنْ تَرْقُبٍ

وَ لَكِنَّ سِرِّي لَيْسَ يَحْمِلُهُ مِثْلِي^{٢٤}

وَ لَمْ يَعْرِفْ قَائِلُ الْبَيْتَيْنِ، وَ مَعْنَى "صُورٌ" فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ: جَمْعُ أَصْوَرٍ، وَصَفٌ مِنَ الصُّورِ، وَ هُوَ إِمَالَةُ الْعَنْقِ. وَ "أَنْظُورٌ" فِي الْبَيْتِ الثَّانِي أَيْ "أَنْظُرُ" حَصَلَ إِشْبَاعٌ فِي حَرْفِ الظَّاءِ الْمَضْمُومِ فَتَوَلَّدَ حَرْفُ الْوَاوِ.

٢٠ الْبَجْحُ بِالشَّيْءِ: الْفَرْحُ بِهِ.

٢١ أَيْ أَرْقَ نَسِيًّا.

٢٢ التَّحَامِلُ بِالْأَمْرِ وَ فِيهِ: تَكَلَّفَ عَلَى مَشَقَّةٍ.

٢٣ الْبَعْلُ - بَفْتَحَتَيْنِ - الضَّجْرُ وَ التَّبْرَمُ بِالشَّيْءِ.

٢٤ مِنْ قَصِيدَةٍ لَهَا مَطْلَعُهَا:

- جَرَى نَاصِحٌ بِالْوَدِّ بَيْنِي وَ بَيْنَهَا

فَقَرَّبَنِي يَوْمَ الْحَصَابِ إِلَى قَتْلِي

وَ قَبْلَهُ:

- فَقَالَتْ - وَ أَرَخْتُ جَانِبَ السِّتْرِ بَيْنَنَا -:

وَ كَذَلِكَ قَوْلُ الْأَعْشَى:

"و هل تطيق وداعاً أيها الرجل؟"^{٢٥}

وَ كَذَلِكَ قَوْلُ الْآخِرِ^{٢٦}:

- وَدَعْتَهُ بِدُمُوعِي يَوْمَ فَارِقَنِي

وَ لَمْ أَطِقْ جِزْعًا لِلْبَيْنِ مَدَّ يَدِي

وَ الْأَمْرُ فِي هَذَا أَظْهَرَ، وَ شَوَاهِدُهُ أُسِيرٌ وَ أَكْثَرُ.

ثُمَّ لِنَعِدْ فَلِنَقْلُ فِي الْاِغْتِلَالِ لِمَنْ قَالَ بَأْنَ اللَّغَّةَ لَا تَكُونُ وَحِيًّا. وَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ أَسْلَ اللَّغَّةَ لَا بَدَّ فِيهِ مِنَ الْمَوَاضِعَةِ قَالُوا: "وَ ذَلِكَ كَانَ يَجْتَمِعُ حَكِيمَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ فَصَاعِدًا، فَيَحْتَاجُوا إِلَى الْإِبَانَةِ عَنِ الْأَشْيَاءِ الْمَعْلُومَاتِ فَيَضَعُوا لِكُلِّ وَاحِدٍ [مِنْهَا] سِمَةً وَ لَفْظًا إِذَا ذَكَرَ عَرَفَ بِهِ مَا مَسَّمَاهُ، لِيَمْتَنَزَ مِنْ غَيْرِهِ وَ لِيُعْنَى بِذِكْرِهِ عَنِ إِحْضَارِهِ إِلَى مَرَاةِ الْعَيْنِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَقْرَبَ وَ أَحْفَ وَ أَسْهَلَ مِنْ تَكَلُّفِ إِحْضَارِهِ، لِبَلُوغِ الْغَرَضِ فِي إِبَانَةِ حَالِهِ". بَلْ قَدْ يَحْتَاجُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ إِلَى ذِكْرِ مَا لَا يُمْكِنُ إِحْضَارُهُ وَ لَا إِدْنَاؤُهُ، كَالْفَانِي، وَ حَالِ اجْتِمَاعِ الضَّدِّينَ عَلَى الْمَحَلِّ الْوَاحِدِ، كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ لَوْ جَازَ، وَ غَيْرَ هَذَا مِمَّا هُوَ جَارٍ فِي الْاِسْتِحَالَةِ وَ الْبَعْدِ مَجْرَاهُ، فَكَأَنَّهُمْ جَاءُوا إِلَى وَاحِدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ، فَأَوْمَنُوا إِلَيْهِ وَ قَالُوا: "إِنْسَانٌ إِنْسَانٌ إِنْسَانٌ!"، فَأَيَّ وَقْتٍ سَمِعَ هَذَا اللَّفْظَ عَلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ هَذَا الضَّرْبَ مِنَ الْمَخْلُوقِ، وَ إِنْ أَرَادُوا سِمَةَ عَيْنِهِ أَوْ يَدِهِ أَشَارُوا إِلَى ذَلِكَ فَقَالُوا: "يَدٌ، عَيْنٌ، رَأْسٌ، قَدَمٌ"، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ. فَمَتَى سُمِعَتِ اللَّفْظَةُ مِنْ هَذَا عَرَفَ مَعْنِيَّهَا، وَ

"مَعِيَ فَتَحَدَّثْتَ غَيْرَ ذِي رَقَبَةٍ أَهْلِي."

وَ الْحَصَابُ - بَزْنَةُ كِتَابٍ -: مَوْضِعُ رَمِي الْجَمَارِ بِمِثْلِي.

وَ صَدْرُهُ: ^{٢٥}

- وَدَعَّ هَرِيرَةً إِنَّ الرِّكْبَ مَرْتَحِلٌ

وَ هُوَ مَطْلَعٌ مَعْلَقَتُهُ الْمَشْهُورَةُ.

هُوَ بَشَّارُ بْنُ بَرْدٍ. ^{٢٦}

هلم جَرًا فيما سوى هَذَا من الأسماء، وَ الأفعال، وَ الحروف. ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هُذِهِ المواضعة إلى غيرها فنقول: "الَّذِي اسمه "إنسان" فليجعل مكانه "مرد"^{٢٧}، وَ الَّذِي اسمه "رأس" فليجعل مكانه "سر"؛ وَ عَلَى هَذَا بَقِيَّةُ الكلام. وَ كَذَلِكَ لو بدئت اللُّغَةَ الفارسيَّةَ فوقعت المواضعة عَلَيَّهَا، لجاز أن تنقل وَ يُوَلَّدَ منها لُغات كثيرة: من الرُّوميَّة، وَ الرَّنْجِيَّة، وَ غيرهما. وَ عَلَى هَذَا مَا نشاهده الآن من اختراعات الصَّنَاع لِآلات صنائعهم من الأسماء: كالنَّجَّار، وَ الصَّنَّاع وَ الحائك، وَ البناء وَ كَذَلِكَ المَلَّاح. قالوا: "وَ لَكِن لَّا بَدَّ لِأولها من أن يكون متواضعاَ بالمشاهدةِ وَ الإيماء". قالوا: "وَ القديم – سبحانه – لَّا يجوز أن يوصف بأن يواضع أحدًا من عباده عَلَى شيء؛ إذ قد ثبت أن المواضعة لَّا بَدَّ معها من إيماء وَ إشارة بالجارحة نحو الموما إِلَيْهِ، وَ المشار نحوه، وَ القديم – سبحانه – لَّا جارحة له، فيصح الإيماء وَ الإشارة بِهَا منه؛ فبطل عندهم أن تصحَّ المواضعة عَلَى اللُّغَةَ منه، تقدَّست أسماؤه؛ قالوا: "وَ لَكِن يجوز أن ينقل الله اللُّغَةَ الَّتِي قد وقع التَّواضع بين عباده عَلَيَّهَا، بأن يقول: "الَّذِي كنتم تعبرون عنه بكذا عبَّروا عنه بكذا، وَ الَّذِي كنتم تسمونه كذا ينبغي أن تسموه كذا"؛ وَ جواز هَذَا منه – سبحانه – كجوازه من عباده". وَ من هَذَا الَّذِي في الأصوات مَا يتعاطاه النَّاس الآن من مخالفة الأشكال، في حروف المعجم؛ كالصُّورة الَّتِي توضع للمعمَّيات^{٢٨}، وَ التَّراجم؛ وَ عَلَى ذَلِكَ أيضًا اختلفت أقلام ذوي اللُّغات؛ كما اختلفت أنفس الأصوات المرتبَّة عَلَى مذاهيهم في المواضعات. وَ هَذَا قول من الظُّهور عَلَى ما تراه. إِلَّا أَنِّي سألت يومًا بعض أهله^{٢٩}، فقلت: "ما تنكر أن تصحَّ المواضعة من الله – تَعَالَى –؟" وَ إن لم يكن ذا جارحة، بأن يُحدث في جسم من الأجسام، خشبةً أو غيرها، إقبالًا عَلَى شخص من الأشخاص، وَ تحريكًا لها نحوه، وَ يُسمع في نَفْس تحريك الخشبة نحو ذَلِكَ الشَّخص صوتًا يضعه اسمًا له، وَ يعيد حركة تَلْكَ الخشبة نحو ذَلِكَ الشَّخص دَفَعَاتٍ، مع أَنَّهُ – عَزَّ اسمُه – قادر عَلَى أن يُقع في تعريفه ذَلِكَ بالمرَّة الواحدة، فتقوم الخشبة في هَذَا الإيماء، وَ هُذِهِ الإشارة، مقام جارحة ابن آدم في الإشارة بِهَا في المواضعة؛ وَ كما أن الإنسان أيضًا قد يجوز إذا أراد المواضعة أن يشير بخشبة نحو المراد المتواضع عَلَيَّهِ، فيقيمها في ذَلِكَ مقام يده،

٢٧ مرد: هُوَ الإنسان، وَ سر: الرَّأس في الفارسيَّة. وَ المرء – في العَرَبِيَّة – التَّضْيِج من ثمر الأراك.

٢٨ يقصد بـ"المعمَّيات" ما تغيَّرت حروفه المعروفة في الكتابة لِأجل التَّعمية وَ الإلغاز وَ هُوَ ما يعرف في عصرنا بالشفرة.

٢٩ هم المعتزلة.

لو أراد الإيماء بها نحوه؟ فلم يجب عن هذا بأكثر من الاعتراف بوجوبه، و لم يخرج من جهته شيء أصلاً فأحكيه عنه؛ و هو عندي و على ما تراه الآن لازم لمن قال بامتناع مواضعه القديم – تعالى – لغة مرتجلة غير ناقلية لساناً إلى لسان. فاعرف ذلك.

و ذهب بعضهم^{٣٠} إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات، كدويّ الريح، و حنين الرعد، و خرير الماء، و شحيج الحمار، و نعيق الغراب، و سهيل الفرس، و نزيب الطّي و نحو ذلك. ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. و هذا عندي وجه صالح، و مذهب متقبّل.

و اعلم فيما بعد، أنني على تقادم الوقت، دائم التنقير و البحث عن هذا الموضوع، فأجد الدواعي و الخوالج قويّة التجاذب لي، مختلفة جهات التغول^{٣١} على فكري. و ذلك أنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة، الكريمة اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة و الدقة، و الإرهاف، و الرقة، ما يملك عليّ جانب الفكر، حتّى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر^{٣٢}. فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا – رحمهم الله –، و منه ما حذوته على أمثالهم، فعرفت بنتابعه و انقياده، و بعد مراميه و آماده، صحّة ما و قفوا لتقديمه منه. و لطف ما أسعدوا به، و فُرق لهم عنه. و انضاف إلى ذلك وارد الأخبار الماثورة بأنّها من عند الله – عزّ و جلّ – فقوى في نفسي اعتقاد كونها توفيقاً من الله – سبحانه – و أنّها وحي.

ثم أقول في ضدّ هذا: كما وقع لأصحابنا و لنا، و تنبّهوا و تنبّهنا، على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة، كذلك لا ننكر أن يكون الله – تعالى – قد خلق من قبلنا – و إن بعد مداه عنا – من كان اللفظ منّا أذهائاً، و أسرع خواطر و أجراً جنائاً. فأف^{٣٣} بين تين الخلتين حسيراً، و

٣٠ و هذا مذهب ثالث في نشأة اللغة يحكيه ابن جنّي، و هو معروف بمذهب المحاكاة.

٣١ تغول الأمور: اشتباهاها و تناكرها.

٣٢ الغلوة: الغاية في سباق الخيل، يريد أنه يدنو من غاية السحر.

٣٣ يبدو من هذا أن مذهب ابن جنّي في هذا المبحث الوقف، فتراه لا يجزم بأحد الرأيين: الاصطلاح و التوقيف. و قد صرح بهذا ابن الطيّب في "شرح الإقتراح".

أكثرهما فأنكفى مكثورًا. و إن خطر خاطر فيما بعد، يعلّق الكفّ بإحدى الجهتين، و يكفّها^{٣٤} عن صاحبتهما، قلنا به، و بالله التّوفيق. " ^{٣٥}.

و ما سبق كان كلام ابن جنّي في نشأة اللّغة و يراه الدّارس قد حكى في ذلك مذاهب ثلاثة:

١. المذهب القائل بالتّوقيف،

٢. المذهب القائل بالمواضعة و الاصطلاح،

٣. المذهب القائل بالمحاكاة.

على أنّي ألاحظ أنّ الآثار الواردة كانت من الأسباب التي جعلت ابن جنّي كما جعلت معاصره ابن فارس، يميل إلى القول بالتّوقيف، فهو بعد أن بيّن ما تشتمل عليه اللّغة من الدقّة و الحكمة و الإرهاف و الرقّة، و غير ذلك ممّا يشبه السحر قال: "و انضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنّها من عند الله - عزّ و جلّ - فقوى في نفسي اعتقاد كونها توفيقًا^{٣٦} من الله - سبحانه - و أنّها وحي."، و يقول في موضع آخر: "و إذا كان الخبر الصّحيح قد ورد بهذا وجب تلقيه باعتقاده، و الانطواء على القول به."

و قد استدلّ ابن جنّي على رأي التّوقيف، نقلًا عن أستاذه أبي عليّ الفارسيّ بما استدلّ به معاصره ابن فارس، و هو قوله - تعالى -: (و علّم آدم الأسماء كلّها...) ^{٣٧}.

^{٣٤} روي أيضًا: "يفكّها". أي يفصلها عنها. و هذا يرجع إلى المعنى الأول.

^{٣٥} الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنّي، تح: محمد عليّ النّجار، ج ١، من ص ٤٧ إلى ص ٤٧. و انظر: دراسات لغويّة في الصّاحبي - الخصائص - المزهر، د. أمين محمد فاخر، من ص ١١١ إلى ص ١١٧.

^{٣٦} هكذا جاء في "الخصائص" الذي بين يديّ، لكن يجد الدّارس أنّ أ. د. أمين محمد فاخر كتبه مرّة هكذا و مرّة أخرى كتبه: "توفيقًا". انظر: الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنّي، تح: محمد عليّ النّجار، ج ١، ص ٤٧. و انظر: دراسات لغويّة في الصّاحبي - الخصائص - المزهر، د. أمين محمد فاخر، ص ١١٨ و ١١٩.

^{٣٧} القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ٣١.

لكن ابن جنّي حين نقل عن أستاذه، و قبل أن يظهر ميله إلى هذا الرأى، حاول تأويل الآية الكريمة بما يتنافى مع القول به فقال إنّ: "هذا لا يتناول موضع الخلاف، و ذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله: أقدر آدم على أن واضع عليها، و هذا المعنى من عند الله - سبحانه - لا محالة، فإذا كان ذلك محتملاً غير مستنكر سقط الاستدلال به".

و قد تبعه في ذلك ابن سيده^{٣٨} حين عرض في كتابه "المخصّص" لهذه النظرية و ما جاء فيها من خلاف بين المذاهب المختلفة، فقد ناقش كلّ فريق، و أعلن أخيراً أنه يميل إلى مذهب التّوقيف، يقول ابن سيده: "اختلفوا في اللّغة أ متواطأً عليّها أم ملهم إليها و هذا موضع يحتاج إلى فضل تأمل... إلا أن أبا عليّ الحسن بن أحمد بن عبدالغفار بن سليمان الفارسيّ النّحويّ قال: "هي من عند الله و احتجّ بقوله - سبحانه - : (و علّم آدم الأسماء كلّها...) ^{٣٩}، و هذا ليس باحتجاج قاطع، و ذلك أنه يجوز أن يكون تأويله أقدر آدم..."، ثمّ بيّن مذهبه في ذلك و أنه يميل إلى القول بالتّوقيف، فيقول ما قاله ابن جنّي: "و أنضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنّها من عند الله - عزّ و جلّ - فقوى في نفسي اعتقاد كونها توفيقاً^{٤٠} من الله - سبحانه - و أنّها وحي".

و قد سبق القول بأنّ من الباحثين من احتجّ لِرأى الاصطلاح بتأويل الآية بأنّ معنى "علّم": ألهم، كقوله - تعالى - : (و علّمناه صنعة لبوس لكم...) ^{٤١}.

و لا أميل إلى ما ذهب إليه ابن جنّي و تبعه فيه كثير من الباحثين، و هو إمكان إسقاط الاستدلال بالآية الكريمة على صحة التّوقيف بناءً على أنه يجوز أن يكون معنى "علّم آدم الأسماء": أقدره على أن واضع عليّها أو على وضعها أو أقدره على النطق بألفاظ معيّنة، و كذلك ما ذهب إليه بعض العلماء من إبطالهم مذهب التّوقيف بناءً على أنه يجوز أن يكون المراد

^{٣٨} هو أبو الحسن عليّ بن إسماعيل النّحويّ الأندلسيّ، المعروف بـ"ابن سيده"، و المتوفّي ٤٥٩ هـ.

^{٣٩} القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ٣١.

^{٤٠} انظر التّعليق على هذا في الهواش السّابقة.

^{٤١} القرآن الكريم، سورة الأنبياء، آية ٨٠.

من تعليم الأسماء الإلهام إلى وضعها، ذلك لأنّ تأويل الآية بالإقذار أو الإلهام إنّما يصلح حجة لمن يقول بالتّوقيف و ليس لمن يقول بالاصطلاح، فالإقذار يمكن أن يكون طريقاً من طرق التّوقيف، و يفيد هذا قول السيوطي: "إذا قلنا أنّ اللُّغات توقيفية ففي الطّريق إلى علمها مذاهب حكاه ابن الحاجب و غيره، أحدها بالوحي إلى بعض الأنبياء، و الثّاني بخلق الأصوات في بعض الأجسام، و الثّالث بعلم ضروريّ خلقه في بعضهم حصل به إفادة اللفظ للمعنى"^{٤٢}، كما أن ابن جنّي سمّي مذهب التّوقيف بالإلهام حين قال^{٤٣}: "قد تقدّم في أوّل الكتاب القول على اللُّغة أ تواضع هي أم إلهام."

فليس الوحي وحده إذا طريق التّوقيف، بل إنّ القائلين بأنّ اللُّغة توقيف من الله – تعالى –، بعضهم فسّر ذلك بالوحي و بعضهم بالإلهام أو الإقذار، و بعضهم بالأمرين.

و من هنا يرى بعض الباحثون^{٤٤} يذهب مذهباً ثالثاً يجمع بين المذهبين السّابقين و خلاصته أنّ كلّاً من القول بالتّوقيف، و القول بالاصطلاح ممكن وقوعه، فقوله – تعالى –: (وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا...) ^{٤٥}، يعني أنّ التّعليم قد حصل بالإلهام أيّ بالقوّة، لقد وضع الله في الإنسان ملكة الخلق، ثم تركه يخلق على هواه، و إذا كان من المسلم به أنّ الأسماء قد أعطيت لآدم بالتّوقيف فإنّ الذين جاءوا بعده لم يوقفوا عليها، لقد اصطلح أولاده من بعده على لغاتهم؛ و الدليل على ذلك قوله – تعالى –: (وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ...) ^{٤٦}، هذا برهان على أنّ اللُّغة وضعت للإنسان بالإلهام "أيّ بالقوّة"؛ لا بالخطاب "أيّ بالفعل".

^{٤٢} المزهر في علوم اللُّغة و أنواعها، العلامة عبدالرحمن جلال الدين السيوطي، تح و تص: محمد أحمد جاد المولى بك و محمد أبو الفضل إبراهيم و عليّ محمد البجاوي، ج ١، ص ٢٥، ط ٣، دار الثّراث، القاهرة د ت.

^{٤٣} الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنّي، تح: محمد عليّ النّجار، ج ٢، ص ٢٥.

^{٤٤} انظر: الإحكام في أصول الأحكام، سيف الدين أبو الحسن عليّ بن محمد النّعلبي، تح: عبدالمنعم إبراهيم، ج ١، ص ٢٤ و ما بعدها، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكّة المكرّمة ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م.

^{٤٥} القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ٣١.

^{٤٦} القرآن الكريم، سورة إبراهيم، آية ٤.

وَ قَدْ سَبَقَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُ يُمْكِنُ التَّوْفِيقُ بَيْنَ رَأْيِ التَّوْقِيفِ الَّذِي قَالَ بِهِ ابْنُ فَارِسٍ وَ بَيْنَ الرَّأْيِ الَّذِي حَكَاهُ ابْنُ جَنِّي الْقَائِلُ بِأَنَّ اللُّغَةَ نَشَأَتْ عَنْ طَرِيقِ الْمَوَاضِعَةِ وَ الْإِصْطِلَاحِ، فَابْنُ فَارِسٍ يَرَى أَنَّ اللُّغَةَ لَمْ تَنْشَأْ كُلُّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَ ابْنُ جَنِّي لَا يَنْكُرُ أَنَّ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ أَقْدَرَ آدَمَ عَلَى تَعْلِيمِ اللُّغَةِ أَوْ الَّتِي هِيَ إِيَّاهَا.

كَذَلِكَ سَبَقَ الْقَوْلُ بِأَنَّ ابْنَ فَارِسٍ لَهُ رَأْيٌ خَاصٌّ حِينَ يَقُولُ بِالتَّوْقِيفِ يُوَيِّدُهُ وَ يَدَافِعُ عَنْهُ، وَ يَبْطُلُ الْأَرَاءُ الْأُخْرَى وَ يَنَاقِشُهَا مَسْتَمْسِكًا بِرَأْيِهِ لَا يَحِيدُ عَنْهُ، أَمَّا ابْنُ جَنِّي وَ كَذَلِكَ أَسْتَاذُهُ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ فَلَيْسَ لِهَذَا فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ رَأْيٌ مَعِينٌ، وَ نَسَبَ إِلَيْهِمَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ الْقَوْلَ بِأَنَّ اللُّغَةَ لَيْسَتْ إِلَّا مَوَاضِعَةً وَ إِصْطِلَاحًا، رَبَّمَا يَرْجِعُ السَّبَبَ فِي نَسْبَةِ الْعُلَمَاءِ هَذَا الرَّأْيِ إِلَيْهِمَا إِلَّا أَنَّهُمَا كَانَا مُعْتَزِلِينَ، وَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ يَقُولُ بِهِ^{٤٧} أَوْ يَرْجِعُ إِلَى أَنَّ ابْنَ جَنِّي رَجَّحَ أَوَّلًا رَأْيَ الْإِصْطِلَاحِ، وَ حَاوَلَ إِبْطَالَ الْإِسْتِدْلَالَ بِمَا جَاءَ بِهِ أَصْحَابُ التَّوْقِيفِ حَيْثُ قَالَ: "يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى "عَلَّمَ آدَمَ": أَقْدَرَهُ عَلَى أَنْ وَاضَعَ عَلَيْهَا... فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ مُحْتَمَلًا غَيْرَ مُسْتَنَكِرٍ سَقَطَ الْإِسْتِدْلَالُ بِهِ..."، عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ.

وَ الْحَقُّ أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ إِلَى الْآنَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ بِرَأْيِ الْمَوَاضِعَةِ وَ الْإِصْطِلَاحِ، وَ أَنَّ ابْنَ جَنِّي نَقَلَ فَقَطْ هَذَا الرَّأْيَ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ حَيْثُ قَالَ: "أَكْثَرُ أَهْلِ النَّظَرِ عَلَى أَنَّ أَسْلَ اللُّغَةَ إِنَّمَا هُوَ تَوَاضَعٌ وَ إِصْطِلَاحٌ، لَا وَحْيٌ وَ تَوْقِيفٌ..."^{٤٨}، فَقَالَ: "وَ اعْلَمْ فِيمَا بَعْدَ، أَنَّنِي عَلَى تَقَادُمِ الْوَقْتِ، دَائِمٌ التَّنْقِيرُ وَ الْبَحْثُ عَنْ هَذَا الْمَوْضِعِ، فَاجِدُ الدَّوَاعِيَ وَ الْخَوَالِجَ قَوِيَّةَ التَّجَاذِبِ لِي، مُخْتَلِفَةً جِهَاتِ التَّغَوُّلِ"^{٤٩} عَلَى فِكْرِي. وَ ذَلِكَ أَنَّنِي إِذَا تَأَمَّلْتُ حَالَ هَذِهِ اللُّغَةِ الشَّرِيفَةِ، الْكَرِيمَةِ اللَّطِيفَةِ، وَ جَدْتُ فِيهَا مِنَ الْحِكْمَةِ وَ الدَّقَّةِ، وَ الْإِرْهَافِ، وَ الرَّقَّةِ، مَا يَمْلِكُ عَلَيَّ جَانِبَ الْفِكْرِ، حَتَّى

^{٤٧} المزهري في علوم اللغة و أنواعها، العلامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، تح و تص: محمد أحمد جاد المولى بك و محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي، ج ١، ص ٧٠. و انظر: دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، ص ١٤، ط ٥، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٨٤ م.

^{٤٨} الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تح: محمد علي التجار، ج ١، ص ٢٠٠.

^{٤٩} تغول الأمور: اشتباهاها و تناكرها.

يكاد يطمح به أمام غلوة السحر^{٥٠}. فمن ذلك ما نبّه عليه أصحابنا – رحمهم الله –...^{٥١}، إلى أن يقول: "فقوى في نفسي اعتقاد كونها توفيقاً من الله – سبحانه – و أنها وحي".

فلم يكن ابن جنّي إذًا أوّل من قال بمذهب المواضعة و الاصطلاح في نشأة اللّغة، بل إنّ حين ينقله نراه متردّدًا حائرًا بينه و بين مذهب التّوقيف أيّهما يفضّل حتّى قال أخيرًا: "و إن خطر خاطر فيما بعد، يعلّق الكفّ بإحدى الجهتين، و يكفّها^{٥٢} عن صاحبتهما، قلنا به، و بالله التّوفيق".^{٥٣}

أمّا أبو عليّ الفارسيّ فقد نقل عنه ابن جنّي القول بالتّوقيف و الاستدلال عليه بالآية الكريمة: (وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا...) ^{٥٤}، ثمّ ذكر بعد ذلك أنّه قال بالتّواضع و الاصطلاح في بعض كلامه، كذلك نقل ابن جنّي عن أبي الحسن الأخفش القول بالرّأيين: التّوقيف و الاصطلاح.

و يخلط بعض الباحثين بين الرّأي القائل بأنّ اللّغة مواضعة و اصطلاح و بين كونها نشأت من الأصوات المسموعة و هو ما يعرف بنظريّة المحاكاة، و يرون أنّ ذلك كلّه رأي واحد يسمّى برأي المواضعة و الاصطلاح، و قد نسبوا ذلك لابن جنّي حيث قال بعضهم: "إنّ ابن جنّي هو الذي سبق إلى القول بوضع اللّغة... و أنّها بدأت بصورتها الصّوتية السّمعية، فكان أصل اللّغات كلّها الأصوات المسموعة".^{٥٥}

و لذلك فإنّ هؤلاء يحسبون أنّ ابن جنّي عرض لنظريّتين فقط في نشأة اللّغة و هما: نظريّة التّوقيف و نظريّة الاصطلاح؛ لأنّهما يرون أنّ الاصطلاح يشمل القول بالمواضعة و

^{٥٠} الغلوة: الغاية في سباق الخيل، يريد أنّه يدنو من غاية السّحر.

^{٥١} المرجع السّابق – ج ١، ص ٤٧.

^{٥٢} روي أيضًا: "يفكّها". أي يفصلها عنها. و هذا يرجع إلى المعنى الأوّل.

^{٥٣} المرجع السّابق – ج ١، ص ٤٧.

^{٥٤} القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ٣١.

^{٥٥} انظر: دراسات في فقه اللّغة، د. صبحي الصّالح، ص ٢١، مطبعة جامعة دمشق، دمشق ١٩٦٠ م.

القول بمحاكاة الأصوات المسموعة، وَ فِي هَذَا يَقُولُ بَعْضُهُمْ^{٥٦}: "أَمَّا كَيْفَ نَشَأَتِ اللُّغَةُ فِي رَأْيِ أَصْحَابِ الاِصْطِلَاحِ فَتَرَاهُمْ يَفْتَرِضُونَ فِي هَذَا أَحَدَ فَرَضَيْنِ يَلْخِصُهُمَا ابْنُ جَنِّي فِي "الْخِصَائِصِ" قَائِلًا: "كَأَنَّ يَجْتَمِعُ حَكِيمَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ فِصَاعِدًا، فَيَحْتَاجُوا إِلَى الْإِبَانَةِ عَنِ الْأَشْيَاءِ الْمَعْلُومَاتِ فَيَضَعُوا لِكُلِّ وَاحِدٍ [مِنْهَا] سَمَةً وَ لَفْظًا إِذَا ذَكَرَ عَرَفَ بِهِ...". إِلَى أَنْ يَقُولَ ابْنُ جَنِّي: "فَكَأَنَّهُمْ جَاءُوا إِلَى وَاحِدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ، فَأَوْمَأُوا إِلَيْهِ وَ قَالُوا: "إِنْسَانٌ إِنْسَانٌ إِنْسَانٌ!"، فَأَيَّ وَقْتٍ سَمِعَ هَذَا اللَّفْظَ عِلْمٌ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ هَذَا الضَّرْبَ مِنَ الْمَخْلُوقِ...".

أَمَّا الْفَرَضُ الثَّانِي فَيُرَدُّ فِي كَلَامِ ابْنِ جَنِّي عَلَى الصَّوْرَةِ الْآتِيَةِ: "وَ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ^{٥٧} إِلَى أَنَّ أَسْلَ اللُّغَاتِ كُلَّهَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَصْوَاتِ الْمَسْمُوعَاتِ، كَدَوِيِّ الرِّيحِ، وَ حَنِينِ الرَّعْدِ، وَ خَرِيرِ الْمَاءِ، وَ شَجِيحِ الْحَمَارِ، وَ نَعِيقِ الْغَرَابِ، وَ صَهِيلِ الْفَرَسِ، وَ نَزِيْبِ الطَّبِي وَ نَحْوِ ذَلِكَ. ثُمَّ وُلِدَتِ اللُّغَاتُ عَنِ ذَلِكَ فِيمَا بَعْدَ. وَ هَذَا عِنْدِي وَجْهٌ صَالِحٌ، وَ مَذْهَبٌ مُتَقَبَّلٌ". وَ لَسْنَا مَعَ الَّذِينَ يَرُونَ أَنَّ الاِصْطِلَاحَ وَ الْمَحَاكَاةَ نَظْرِيَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَّ ابْنَ جَنِّيَ اعْتَبَرَهَا كَذَلِكَ، فَالْوَاقِعُ أَنَّ كِلَا مِنْهُمَا نَظْرِيَّةٌ مُسْتَقَلَّةٌ عَنِ الْأُخْرَى، كَمَا أَنَّ ابْنَ جَنِّيَ فَصَلَ بَيْنَهُمَا حَيْثُ قَالَ بَعْدَ أَنْ شَرَحَ مَعْنَى الْمَوَاضِعِ وَ الاِصْطِلَاحِ: "وَ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ أَسْلَ اللُّغَاتِ كُلَّهَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَصْوَاتِ الْمَسْمُوعَاتِ... إلخ."، فَهُوَ يَرَى أَنَّ ذَلِكَ رَأْيٌ مُسْتَقَلٌّ ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ قَبْلَهُ."

وَ مِنَ الْمَحْدَثِينَ^{٥٨} مَنْ تَنَبَّهَ إِلَى ذَلِكَ فَذَكَرَ أَنَّ ابْنَ جَنِّيَ قَالَ بِالْاِصْطِلَاحِ أَوَّلَ الْأَمْرِ ثُمَّ اتَّجَهَ أَخِيرًا إِلَى رَأْيِ الْمَحَاكَاةِ، كَمَا ذَكَرَ أَنَّ وَجْهَتَهُ فِي نَظْرِيَّةِ الْمَحَاكَاةِ تَتَّفَقُ مَعَ وَجْهَةِ الْمَحْدَثِينَ مَعَ عُلَمَاءِ الْغَرْبِ كـ"سِيْبِنْسِرْ" وَ "يَاسْپِرْسِنْ".

كَمَا ذَكَرَ بَعْضُهُمْ^{٥٩} آرَاءَ الْعَرَبِ الْقَدَامِيِّ فِي نَشْأَةِ اللُّغَةِ وَ هِيَ خَمْسَةٌ، مِنْهَا ثَلَاثَةٌ نَقَلَهَا ابْنُ جَنِّي وَ فِيهَا يَظْهَرُ الْفَصْلُ بَيْنَ الْقَوْلِ بِالْمَوَاضِعِ وَ الاِصْطِلَاحِ وَ بَيْنَ الْقَوْلِ بِالْمَحَاكَاةِ فِي نَظَرِ ابْنِ جَنِّي، وَ تِلْكَ الْآرَاءُ هِيَ:

^{٥٦} انظر: دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، ص ١٤. و انظر: الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تح: محمد علي النجار، ج ١، ص ٢٤.

^{٥٧} وَ هَذَا مَذْهَبٌ ثَالِثٌ فِي نَشْأَةِ اللُّغَةِ يَحْكِيهِ ابْنُ جَنِّي، وَ هُوَ مَعْرُوفٌ بِمَذْهَبِ الْمَحَاكَاةِ.

^{٥٨} انظر: فقه اللغة العربية، د. إبراهيم محمد نجا، من ص ١٥ إلى ص ١٦، مطبعة السعادة، ١٩٧٣ م.

١. نظرية التوقيف، التي قال بها ابن فارس و نقلها ابن جني عن أستاذه أبي عليّ الفارسي،
٢. نظرية المواضعة و الاصطلاح، التي نقلها ابن جني كذلك،
٣. نظرية محاكاة الأصوات، و شرحها ابن جني بعد أن نقلها عن بعض العلماء،
٤. نظرية التوزيع، و هي أن بعض ألفاظ اللغة من عند الله و من وضعه، أما البعض الآخر فهو من وضع الإنسان، و يقول السُّيوطي عن هذه النظرية: "إما أن يكون الابتداء من الناس و التتمة من الله و هو مذهب قوم، أو الابتداء من الله و التتمة من الناس، و هو مذهب الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني^{٦٠}،^{٦١}،
٥. نظرية عباد بن سليمان الصيمري، و يذهب القائلون بها إلى أن الألفاظ تدلّ على المعاني بذواتها أي أنّ معنى اللفظ موجود فيه بالضرورة، و لا يتخلف عنه فكأنّ المعنى ملازم للفظ و حال فيه بالطبيعة، و قد ذكر المحقّقون^{٦٢} أدلّة كثيرة على فساد هذا الرأى^{٦٣}.

^{٥٩} انظر: قَضَايَا لُغَوِيَّةً، د. كمال بشر، ٣٥ و ما بعدها، ط ١، دار الطباعة القوميّة، القاهرة ١٩٦٢ م.

^{٦٠} و هو إبراهيم بن محمد إبراهيم بن مهران أبو إسحاق، عالم بالفقه و الأصول (ت ٤١٨ هـ).

^{٦١} أنظر: المزهري في علوم اللّغة و أنواعها، العلامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، تح و نص: محمد أحمد جاد المولى بك و محمد أبو الفضل إبراهيم و عليّ محمد البجاوي، ج ١، ص ١٤.

^{٦٢} انظر: المرجع السابق - ج ١، ص ٤٧.

^{٦٣} و انظر: دراسات لغويّة في الصّاحبي - الخصائص - المزهري، د. أمين محمد فاخر، من ص ١١٧ إلى ص ١٢٥.

الْخَاتِمَةُ

الْخَاتِمَةُ

بعد البحث و التّفصّي العلميّ للحقائق الصّوتيّة التي تناولها موضوع الدّراسة في هذا الكتاب؛ توصلّ البحث إلى النّتائج التّالية:

١. من هذه القضية اللّغويّة و البَحْث الَّذِي قَدّمه ابن جَنّيّ يستطيع الدّارس أن يفهم مدى عبقرية العلماء العرب في شتّى العلوم اللّغويّة، من الأصوات و التّجويد و النّحو و الصّرف و البلاغة و غيرها، فأمر بديهيّ أن العرب كانوا في مكانة راقية في العلم، لكنني عندما أقول العرب لا أظنّ عربيّ الأصل، بل أظنّ ناطق و عالم اللّغة العرَبِيّة، أمّا العرب الأصليين فيندر عدد علمائهم في لغتهم، فأبرز علماء العرَبِيّة عامّة و الأصوات خاصّة لم يكونوا العرب أنفسهم. أ لم يكن سيويوه و ابن سينا فارسيين، و ابن جنّيّ روميّاً؟ فمن هنا يستطيع الدّارس أن يفهم أنّه لكي يصل الدّارس إلى المعلومات و الاعتقادات الصّحيحة و السّليمة فلا بدّ من أن يتعلّم لغات كثيرة ليتمكّن من فهم الحقائق اللّغويّة و شرحها على أكمل الوجه، لأنّ على العالم اللّغويّ معرفة أكثر قدر من اللّغات، و يستطيع الدّارس أن يلاحظ أنّ من سمات ابن جنّيّ أنّه عرف اللّغة غير العرَبِيّة و لم يكتفِ باللّغة العرَبِيّة فقط في شرحه لهذه النّظريّات المختلفة المتعدّدة،

٢. و يلاحظ الدّارس أنّ ابن جنّيّ وصل إلى أعماق الأسرار العلميّة في نشأة اللّغة بالمنهج العدّة، و هي: ملاحظة ذاتيّة بواسطة بعض الحواسّ الإنسانيّة، ثمّ الاعتماد على بعض التجارب الأولى البسيطة، و أهمّها البَحْث و الاستقراء،

٣. و من الممكن للدارس المجتهد أن يلاحظ أيضًا أنّ البَحْثَ فِي أصل اللُّغَة وَ نشأتها لم يتوقَّف، فظهرت في القرن التَّاسِعَ عَشَرَ المِئَلَادِيّ نظريَّاتٍ جَدِيدَة منه، مثل:

١. الغريزة الكلامية: وَ يرى أصحاب هذه النَّظْرِيَّة أَنَّ أصل اللُّغَة يرجع إلى غريزة خاصَّة تحمل الإنسان عَلَى التَّعْبِيرِ عَنِ الانفعالاتِ أَوْ الأَشْيَاءِ بِكَلِمَة خاصَّة وَ بصورة عفويَّة. من أصحاب هذه النَّظْرِيَّة العالم الفرنسيّ "فندريس" وَ الألمانِيّ "ماكس مولر" وَ الفرنسيّ "رينان"،

٢. يرى بعض العلماء أَنَّ اللُّغَة بدأت بِالشَّهَقَاتِ أَوْ التَّأَوَّهَاتِ الَّتِي تصدر عَنِ الإنسانِ فِي حالة الحزن أَوْ الفرح أَوْ الدَّهْشَة، مستندين عَلَى نظريَّة "داروين" الَّتِي تقول بِتطوُّر الكائنات الحيَّة. بينما يرى المعترضون أَنَّ هذه الأصوات تنمُّ بصورة فجائيَّة بعيدة عَنِ الكلام،

٣. وَ يرجع بعضهم نشأة اللُّغَة كانت من خلال عمل جماعيّ لِالأفراد أثناء قيامهم بعمل شاقّ تعاونوا عَلَى أدائه، فهم يرون أَنَّ الإنسان يجد الرَّاحَة أثناء قيامه بعمل شاقّ إِذَا تنفَّسَ أَوْ تنهَّدَ مِنَ الأعماق، وَ ربَّما تصدر عنهم أصوات أثناء العمل ترتبط بالعمل نفسه وَ تصبح فيما بعد دالَّة عَلَيْهِ فينطقون بِهَا كَلِمًا تكرر هَذَا العمل،

٤. النَّظْرِيَّة الحديثة: درس أصحاب هذه النَّظْرِيَّة مختلف النَّظْرِيَّاتِ السَّابِقَة، فدَوَّنوا الملاحظات وَ الخبرات وَ التَّجارب وَ أقاموا نظريَّتهم الجديدة وَ قسَّموها إِلَى ثلاثة أُسُسٍ هي: دراسة مراحل نموِّ اللُّغَة عِنْد الطِّفْلِ، وَ دراسة اللُّغَة فِي الأُمم البدائيَّة وَ دراسة تاريخيَّة لِلتطوُّر اللُّغَوِيّ. يُلاحظ أَنَّ النَّظْرِيَّاتِ الثَّلَاثِ الأُولَى تقوم عَلَى طريقة الاستنباط، بينما تقوم النَّظْرِيَّة الحديثة عَلَى الطَّرِيقَة الاستقرائيَّة،

٤. وَ اختلف العلماء عبر العصور في تحديد نشأة اللُّغة وَ أصل الكلام، ممّا أدّى إلى ظهور عدّة نظريّات، وَ ما من نظريّة إلاّ وَ لها معترضون يحاجّون الطّرف الآخر بالحجّة وَ البرهان، وَ لعلّ هذا الاختلاف ناتج عن تأخّر أول نظريّة تتحدّث عن في نشأة اللُّغة عند الإنسان الأوّل، وَ ما هذه النظريّات إلاّ اجتهادات تفتقر إلى الأدلّة الموضوعيّة، وَ لذلك أقول للذين يقولون بتواضع اللُّغة وَ اصطلحها في تسمية الأشياء دون أيّ علاقة بين منطقيّة بين الشّيء وَ اسمه، لا بدّ من وجود لغة عندهم يستخدمونها، فبأيّ لغة كانوا يتواضعون؟ أمّا الذين يقولون بالتوقيف وَ الإلهام فأقول لهم: كيف يتعلّم الإنسان ألفاظاً وَ لا يتعرّف مدلولاتها؟ وَ حتّى نظريّة الأصوات المسموعة لم تنطبق على كلّ الألفاظ وَ المفردات. لذلك لا بدّ من تداخل كلّ النظريّات التي تبحث في اللُّغة وَ نشأتها ليُخرَج بنظريّة واحدة، لأنّ اللُّغة نتاج تفاعل الإنسان صاحب الفطنة وَ الذكاء، صاحب الغرائز وَ الحاجات، فلم ينفصل الإنسان عن الطّبيعة، فقد عرفها وَ تعامل معها في مأكله وَ مشربه وَ ملبسه، عاش فصول السنّة وَ راقب الطّواهر وَ التقلّبات الجويّة وَ الطّبيعيّة، سمع الأصوات فحاكاها وَ هذه هي البداية، وَ لأنّه كان يعيش ضمن الجماعة فلا بدّ أن يكون هناك علاقات اجتماعيّة لا يمكن أن تتفاعل إلاّ بالتواصل من خلال الصّوت أو الصّراخ أو الإشارة للتعبير عن الحالات النفسيّة كالفرح وَ الحزن وَ الدهشة، كما ذكر الدّكتور إبراهيم أنيس. هذه العلاقة ساهمت في نموّ لغته عبر العصور وَ تناقلتها الأجيال بينها وَ أضافت ما يمكن إضافته من مدلولات صوتيّة، وَ مع اشتداد الحاجة بدأ الإنسان صاحب الذكاء يفكّر باستخدام اللُّغة وَ العمل على توسّعها،

٥. وَ لَكِنِّي رَغْمَ مِنْ كُلِّ مَا ذُكِرَ أَقُولُ كَمَا قَالَ ابْنُ جَنِّي: "بعد أن تبيّن ما اشتملت عليه اللُّغة من الدقّة وَ الحكمة وَ الإزهافِ وَ الرقّة، وَ غير ذلك ممّا يشبه السّحر، وَ انّضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنّها من عند الله – عزّ وَ جلّ – فقوى في نفسي اعتقاد كونها توفيقاً من الله – سبحانه – وَ أنّها وحي؛ مع تطوّرها التّاريخي".

أَهَمُّ الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ

الْمَصَادِرُ وَ الْمَرَاجِعُ الْعَرَبِيَّةُ

١. الأنساب، الإمام أبو سعد عبدالكريم بن محمد ابن منصور التميمي السمعاني (ت ٥٦٢ هـ)، تح و تع: عبدالله عمر البارودي، ط ١، دار الجنان، بيروت - لبنان ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.
٢. الإحكام في أصول الأحكام، سيف الدين أبو الحسن علي بن محمد التغلبي، تح: عبدالمنعم إبراهيم، ج، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م.
٣. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م.
٤. المزهر في علوم اللغة و أنواعها، العلامة عبدالرحمن جلال الدين السيوطي، تح و تص: محمد أحمد جاد المولى بك و محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي، ط ٣، دار التراث، القاهرة د ت.
٥. دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، مطبعة جامعة دمشق، دمشق - الجمهورية العربية السورية ١٩٦٠ م.
٦. دراسات لغوية في الصحابي - الخصائص - المزهر، د. أمين محمد فاخر، ط ٢، جامعة الأزهر، القاهرة ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م.
٧. دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، ط ٥، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٨٤ م.
٨. فقه اللغة العربية، د. إبراهيم محمد نجا، مطبعة السعادة، ١٩٧٣ م.

٩. قَصَايَا نُعُوِيَّةً، د. كمال بشر، ط ١، دار الطباعة القومية، القاهرة

١٩٦٢ م.

المصادر و المراجع الأجنبية

1. **Browning, Robert** (1983) *Medieval and Modern Greek*, Cambridge University Press, 2nd edition.
2. Oxford Latin Dictionary (Oxford: Clarendon Press, 1982, 1985 reprinting), entries on *genius*, p. 759, and *gigno*, p. 764..
3. **Woodhouse, S. C.** (1910) *English-Greek Dictionary (A Vocabulary of the Attic Language)*. London: Oxford, George Routledge & Sons, Limited Broadway House, Ludgate Hill, E. C., page 357.

الْفَهْرَسْتُ

الفهرست

١. المقدمة ٢
١. المقدمة ٣
٢. الكشاف للرموز المستخدمة في البحث ٥
٢. الفصل الأول: ترجمة ابن جني ٦
١. ترجمة ابن جني ٧
١. نسبه و مولده و وفاته و أساتذته ٧
٢. تلامذته و آثاره ١١
٣. الفصل الثاني: عن "الخصائص" ١٣
١. عن "الخصائص" ١٤
٤. الفصل الثالث: دراسة "باب القول على أصل اللغة: أ إلهام هي أم اصطلاح؟" لابن جني ١٦
١. دراسة "باب القول على أصل اللغة: أ إلهام هي أم اصطلاح؟" لابن جني ١٧
٥. الخاتمة ٣٠
١. الخاتمة ٣١
٦. أهم المصادر و المراجع ٣٤
١. أهم المصادر و المراجع العربية ٣٥

٢. الْمَصَادِيرُ وَ الْمَرَاجِعُ الْأَجْنَبِيَّةُ ٣٧

٧. الْفَهْرَسْتُ ٣٨

١. الْفَهْرَسْتُ ٣٩

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت

وما توفيقى إلا بالله

عليه توكلت وإليه أُنِيب!

وصلِّ اللهم على محمد وآله الطاهرين...